

الفقر بتطوان القرن التاسع عشر:

مقاربة في المفهوم والعوامل الطبيعية وآثارها الاجتماعية

د. حسن أكدي

دكتور في حفل التاريخ الاجتماعي

hassan.akdi17@gmail.com

المملكة المغربية

الملخص

يعالج هذا المقال ظاهرة الفقر والفقراء بالمجتمع التطواني خلال فترات القرن 19م كجزء من النباش في التاريخ الاجتماعي للفئات الهامشية وعوام المجتمع التطواني الذين غيبتهم الكتابات الكلاسيكية. يستهل الباحث دراسته بتفكيك المعوقات الإستيمولوجية المتمثلة في شح المصادر وتلاشي الآثار المادية للفقراء، ثم ينتقل إلى تحديد الدلالات والاصطلاحات التي وسمت بها هذه الفئة في الوثائق التطوانية.

وفي الشق التحليلي، يركز المقال على دور الأسباب الطبيعية للظاهرة، حيث يستعرض عبر جداول ومعطيات مصنفة سلسلة من الكوارث والجوائح التي فتكت باهل المدينة، موضحا آثارها في أبعاد مختلفة.

الكلمات المفاتيح: الفقر، الأوبئة والجوائح، المجال التطواني، المتن الوثائقي، القرن 19.

Abstract

This article explores poverty and the poor in Tetouan during the 19th century, contributing to the social history of marginalised groups often neglected in traditional historiography. It first addressed the methodological challenges of studying poverty, particularly the scarcity of sources and the limited traces left by poor populations. The study then examines the concepts and terminology associated with poverty in local historical records. Finally, it analyses the role of natural disasters—especially epidemics, drought, and famines—in shaping and expanding poverty, highlighting their demographic, social, and economic consequences within the Tetouani context.

المقدمة

لم يكن حظ البحث حول تاريخ الفقر والفقراء في مغرب الأمس بأحسن حال مما أنجز عن الموضوع في باقي الدول الإسلامية*، حيث لم يخصص المؤرخون و الكتاب أبحاثا و كتبنا حول ظاهرة الفقر، بل اكتفوا ببعض الإشارات العرضية التي تعطي بعض المؤشرات حول الموضوع. وكانت كتب الرحالة و الجغرافيين، و كتب النوازل و المناقب و التراجم تشير في ثناياها إلى الفقراء من الفقهاء والأعيان بعد سخط الحكام عليهم و التجار المفلسين، و تصف بعض الصعوبات التي أصبحوا يعانون منها بفعل الحاجة و الفقر أو هروبا من المجاعات، و يمكن اعتبار ما كتبه ليون الإفريقي و مارمول من أهم ما كتب في الموضوع ابتداء من القرن السادس عشر، كما أن الكتابات التي أنجزها مختلف الرحالة و المستكشفين عن المغرب ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر تعد مصدرا أساسيا من مصادر التأريخ للفقر.

ومن أهم الدراسات نجد: كتابات شارل دوفوكو التعرف على المغرب 1883-1884، كما أن الدراسة القيمة التي أنجزها لوتورنو عن فاس قبل الحماية، و لو أنها أنجزت في فترة الحماية، من أهم الدراسات التي تزخر بإشارات و تحليلات جادة للوضع الاقتصادية في المغرب خلال الفترات الأخيرة قبل الحماية¹. و بالرغم من محدودية المصادر و الإحصائيات أولى الباحثون المغاربة فيما بعد اهتماما ولو نسبيا بالفقر بدراساتهم ليتوج بأعمال أكاديمية مهمة²، و لكن المشكل الذي يظل قائما حين يتعلق الأمر بالتأريخ للفقر، هو أن الفقراء لا يتركوا عادة أثرا في التاريخ فيوتهم على سبيل المثال، تبنى عادة بأدوات سهلة التلاشي، تندثر بسرعة، بمجرد

* تشير فاطمة العيساوي في مداخلتها: « عن الفقر و الفقراء في تاريخ المغرب »، ضمن إحدى الندوات، بأن الغرب سبقنا بأشواط في هذا المضمار. مستعرضة بعض العناوين التي تناولت الظاهرة منها:

« *poverty in the victorian Age* », Debates on the issue from the 19th century journals with an introduction by A.W.coats, 4 volumes.

-Alan forrest, *la revolution français et les pauvres*, Traduit de l'Anglais par marie-Alix revellat, paris,perrin,1986.

-Georg Simmel, *les pauvres*, Traduit de l'allemand par Bertand chorrane, paris ,P,U,F,1998.

▪ أنظر، ندوة: وفيات في تاريخ المغرب. دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب. تنسيق عبد المجيد القدوري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط رقم 27، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء، الطبعة الأولى 2001، ص.151، كذلك هناك:

-Freu ;ch, « *Al'écoute des pauvres des âges anciens* »,in revue quart Monde, n° 214.

-Pietri,ch (1983), « *les pauvres et la pauvreté dans l'Italie de l'empire chrétien IV siècle* » in Miscellan eahistoriae ecclesiasticae Actes du IV colloque de varsovie 1978,Bruxelles

-Geremek, B (1978), *La patence ou lapitié ,l'Europe et les pauvres du Moyen Age à nos jours*, Traduit du polonais par jenne Arnold Nuricet, Paris Gallimard.

-Mollat, M. (1978) *les pauvres au Moyen Age*.Etude social. paris .Hachette.

¹ حسن قرنفل، الفقر من الإحسان إلى التنمية البشرية. مطبعة الأمانة، نشر دار الأمان، الرباط، 2017، ص. 57-58.

² كأمثلة أذكر: ندوة، الأيام العاشرة للجمعية المغربية للبحث التاريخي، المجاعات و الأوبئة في تاريخ المغرب، نظمت بكلية الآداب و العلوم الإنسانية بالجديدة يومي 26،25 أكتوبر 2002، و قبل هذا أنجز محمد الأمين البزاز دراسة عنونها ب: تاريخ الأوبئة و المجاعات بالمغرب في القرنين 18 و 19، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: رسائل و أطروحات؛ رقم 18. مطبعة النجاح الجديدة البيضاء، 1992، و يبقى عمل محمد آستيتو عن: الفقر و الفقراء في القرنين 16 و 17 أهم عمل أكاديمي طرق بعلمية موضوع الفقر على الإطلاق، و سنعتمد عليه كأرضية نطلق منه فيما يخص محاولتنا تسليط الضوء على فقراء تطوان، و إن كان بعيدا عن الفترة الزمنية التي تخص دراستنا.

اندلاع حريق بسيط، أو فيضان كبير، كما أن ملابسهم وأثاثهم غالبا ما يكون من النوع الرديء، وغير ذي قيمة، لا يحتفظ بها في المقابر فيستعصى على الباحث تقصي أثرهم؟

أما الإشكالية الثانية التي تواجه الباحث في تاريخ الفقر، فمرتبط بتحديد مفهوم الفقر نفسه، حيث لم يكن ينظر للفقر باعتباره ظاهرة اجتماعية و وضعية اقتصادية تعاني منها فئات من المجتمع بفعل نظام اقتصادي محدد أو هرمية اجتماعية خاصة، فقد كان الفقر والغنى ضدان ينطبقان على الأفراد و الجماعات بشكل اعتباطي. وغالبا ما كان الفقر يُنسب إلى الدولة و ليس إلى الأفراد، فالدول الفقيرة كانت تعني أن معظم سكانها فقراء، والدول الغنية كانت تعني أن كل سكانها يعيشون في وضعية الرخاء و الغنى¹.

ومادام الفقراء من بين المغيبين و من بين منسيي التاريخ و من لا تاريخ لهم، أي اللذين يغيب الحديث عنهم في اسطغرافيتنا²، سواء تلك المتعلقة بالمجال الريفي أو الحضري، سنعمل في هذه الدراسة على النباش في تاريخ فقراء المجال التطواني خلال القرن التاسع عشر باعتبارها الشريحة الأكثر عددا و التي تشكل قاعدة الهرم الاجتماعي و أساسه من عوام المجال، و بالرغم من الأدوار الشائخة التي لعبتها داخل مجتمعاتها، فإنها لم تذكر — كما سبق — في المصادر إلا بنصف الكلمات المحترقة كالهمج و الرعاع و السفلة و الدهماء، إلا أن إقصاء هذه الفئات من كل تسجيل تاريخي يعد تعسفا يجزئ الحقيقة التاريخية³.

بناء على ما تقدم، فالبحث يهدف إلى:

- **أولا:** النباش في تاريخ الفئات الهاميشية والمغيبية في التودين التاريخي، وإعادة الاعتبار التاريخي لها لتجاوز التعسف المنهجي الذي يجزئ الحقيقة التاريخية.
- **ثانيا:** رصد وتحليل دور الأسباب الطبيعية (تحميدا الأوبئة، الجفاف، والجوائح) في إنتاج الفقر خلال فترات القرن 19م، وتأثيراتها المباشرة على البنية السكانية لحاضرة تطوان.

مرتكزا في تحليله على الإشكالية التالية: إلى أي حد أسهمت الكوارث الطبيعية في إنتاج وتوسيع ظاهرة الفقر بالمجال التطواني خلال القرن 19م؟ وكيف انعكست الظاهرة على البنية الاجتماعية والاقتصادية للسكان؟

وينطلق من فرضيات أهمها:

- ساهمت الكوارث الطبيعية في إنتاج الفقر بالمجال المذكور من خلال إضعاف الإنتاج الفلاحي وارتفاع الوفيات وتراجع الأنشطة الاقتصادية.
- لم يكن الفقر نتيجة عامل منفرد، بل حصيلة تفاعل معقد بين الأزمات الطبيعية والبنيات الاجتماعية والاقتصادية السائدة آنذاك.

ولتحقيق ذلك فهو يعتمد المنهج التاريخي-التحليلي الذي يستند في قراءته ومناقشته للإشكالية إلى استنطاق الوثائق الغميسة والنصوص الدفينة في إطار سياقاتها التاريخية.

1 - حسن قرنفل، الفقر من الإحسان إلى...، م. س، صص. 34-35

2 - محمد آستيتو، الفقراء في المغرب، نماذج من القرنين 16 و 17، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 2006، ص.5.

3 - بختة خليبي، الفقر بالمغرب الإسلامي ما بين القرنين 7 و 9 الهجريين (ق 15/13 م) واقعه و آثاره، دكتوراه نوقشت بكلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر، الجزائر، السنة الجامعية 2015/2016، ص.2.

أولاً: محاولة تأصيل مفهوم الفقر ضمن المتن التاريخي لتطوان القرن التاسع عشر

كما هو معلوم، فإن تحديد المفاهيم يعد ضرورة منهجية لتأصيل الموضوع أثناء التحليل التاريخي، والدافع الذي يجعلنا حريصين على ذلك في عملنا، هو أننا أثناء عمليات التصنيف الوثائقي وتنظيم المادة التاريخية، صادفنا مجموعة من المتون التي تضمنت مصطلحات ودلالات ذات صلة بالفقر تتفاوت في التسميات والمعاني. ومن أبرز النماذج التي تضمنت بعضاً من ذلك نذكر الآتي:

« من كافة آل تطوان حرسه الله تخص ولات الأمر من السلطان نصره الله وساداتها العلماء والأعيان والطلبة والفقراء»¹.

« ويعطي منه معروف مقدار ما يشبع الرجل الواحد لطالب فقير يتعاطى العلم مرة في كل يوم»².

« الشريف الجليل المنيف الأصيل سيدنا عبد السلام ابن ريسون على ضعفة أهل الجزائر»³.

« فيرجع الوقف المذكور حسباً مؤبداً ووفقاً مخلداً على الفقراء والمساكين... تطوان بأن يصرف ذلك في إكساء المحتاج

منهم وجعل النظر في ذلك للأصلح فالأصلح»⁴.

« وإن انقرضوا يرجع التلت المذكور لخبز الخميس ويفرق على ضعفاء أهل تطوان كل يوم خميس»⁵.

« وجعلنا لهم خمسين أوقية في كل شهر من مستفاد الأحباس يستعينون بما لضعف حالهم»⁶.

« سكناه بدرب القايد أحمد بتطوان وأمهما لكوهن من الضعف والفاقة بمكان»⁷.

« وكون البيتمة ضعيفة مغبرة معدمة لوجد أم ما تصلح به أجزاء»⁸.

« وما فضل من التلت يفرق على الدراويش والمساكين عهداً وإيصالاً»⁹.

« الحمد لله بعد أن كان البنات المنوب عنهن في شراء الدار أسفل... وكن في فاقة شديدة وغاية أكيدة»¹⁰.

« ومعهما يشهدون بأنهما عديمين فقيرين محتاجين لبيع الحانوت»¹¹.

« عاين شهيداه العامية... مينة وهي من فقراء المسلمين تحتاج التجهيز والتكفين»¹².

1 - ظهير سلطاني لتعيين محمد بن الحاج عبد السلام مزروع التطواني، بتاريخ 15 شوال 1304هـ/ ضمن، حوالة الزاوية الناصرية، بنظارة الأوقاف بتطوان، صص. 35-38.

2 - وصية الحاج محمد عبد السلام الزكاري التطواني، بتاريخ أوائل ربيع النبي 1339هـ/ ضمن، حوالة المسجد الأعظم، ص. 36. بالنظارة نفسها.

3 - رسم عدلي بتاريخ 9 محرم 1289هـ/ ضمن، حوالة جامع القصة، ص. 17. بالنظارة نفسها.

4 - وصية التاجر عبد السلام بن الفقيه الحاج محمد بنونة العباسي التطواني، بتاريخ 2 صفر 1215هـ/ حوالة المنقطعين، ص. 1. بالنظارة نفسها.

5 - وصية عائشة بنت أقشار بتاريخ، فاتح رجب 1276هـ/ نفس الحوالة، ص. 20. بالنظارة نفسها.

6 - رسالة سلطانية، بتاريخ رجب 1271هـ/ نفس الحوالة، ص. 53. بالنظارة نفسها.

7 - رسالة سلطانية، بتاريخ 19 محرم 1300هـ/ نفس الحوالة، ص. 81. بالنظارة نفسها.

8 - رسم تجميعي لصالح يتيمة بله، بتاريخ 7 رجب 1313هـ/ نفس الحوالة، ص. 147. بالنظارة نفسها.

9 - وثيقة رقم 688، بتاريخ 9 محرم 171هـ/ بالخزانة الداودية.

10 - وثيقة رقم 213، بتاريخ 8 شعبان 1251هـ/ بالخزانة نفسها.

11 - وثيقة رقم 535، بتاريخ 21 ذي الحجة 1217هـ/ بالخزانة نفسها.

12 - وثيقة رقم 713، بتاريخ 2 صفر 1299هـ/ بالخزانة نفسها.

فكما يلاحظ نجد أنفسنا أمام عدة مصطلحات حملتها الوثائق التاريخية تعبر في جوهرها عن تلك الفئات التي كانت تعاني بشكل أو آخر من العوز والفاقة. لهذا كان منطلق تناولنا لظاهرة الفقراء بالمجال قيد البحث و للضرورة العلمية طرح التساؤل التالي: ما المقصود بالفقر و الفقير ؟

1- المفهوم اللغوي

فبداية من الناحية اللغوية نجد للفقر مجموعة من التعاريف التي يتم فيها وصف الفقر و الفقراء في لغة العرب وحالتهم المعيشية، إذ في دراسات لعدة مهتمين وباحثين مثل زينب النجاري، وبخنة خليلي، وحسن قرنفل وغيرهم، والذين تقصوا بعض المعاجم العربية الشهيرة كلسان العرب لإبن منظور وغيره، نجد بأن الفقر والفقر: ضد الغنى و هو الحاجة، وفعله الافتقار، والنعت فقير، والفرق بين الفقير و المسكين، أن الفقير من يجد القوت، و المسكين من لا شيء له، أو الفقير: المحتاج، و المسكين من أذله الفقر وقيل العكس، وقيل الفقراء الزماني (أي الضعفاء) الذين لا حرفة لهم، و أهل الحرف الذين لا تقع حرفتهم من حاجتهم موقعا، والمسكين: السؤال، ممن لهم حرفة تقع موقعا و لا تغنيهم و عيالهم، فالفقراء و المسكين يجمعهم معنى الحاجة إلى الكفاية¹.

و تتوفر اللغة العربية على عدد كبير من المرادفات لكلمة فقير و فقر، كما أن مختلف اللهجات العربية* تتوفر بدورها على عشرات الكلمات الدالة على وضعية الفقر، ومعظمها كلمات ذات دلالات قديمية، تستخدم أساسا للتقليل من الأشخاص و الحط من قدرهم². ومن الأمثلة نذكر: بائس، معسر، مفلس، معدوم، محروم، محتاج، معوز، مضطر، وغيرها، بل اتساع دلالات و معاني مصطلح الفقر في المعاجم اللغوية دفعت البعض إلى مزيد من التفصي والتدقيق، وهذا ما فعلته إحدى الباحثات في التاريخ الوسيط، حيث توصلت إلى عدة معاني نجد أبرزها وفق الخطاطة التالية³:

¹ - زينب نجاري، المحددات و الأبعاد السوسيو اقتصادية للفقر بالوسط القروي إقليم تاونات نموذجاً. بحث لنيل الدكتوراه في السوسيوولوجيا، نوقشت بكلية الأداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 2010/2009 ص.31.

* - فمثلا في الأمثال الشعبية التطوانية نجد عدة تعابير ومصطلحات تعبر عن الفقر والفقير تضمنها أحد مؤلفات داود، و من قبيل ذلك نجد: ~ (مزبوط)، مزبوط بحال الفار د الجامع. مثل رقم، 392، ص. 144.

~ (الساعي)، ساعي وبالعدلا، اعطاوه السفنجا قال عوجا. مثل رقم، 15، ص. 173.

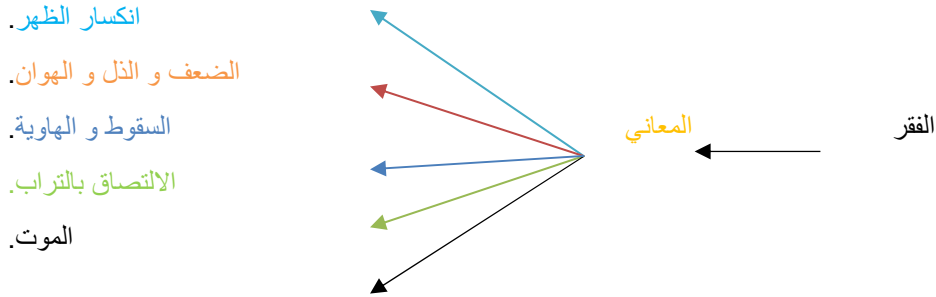
~ (المسكين)، إتق الله ف هاذ المسكين، مثل رقم، 21، ص. 49.

أنظر محمد داود، الأمثال العامية في تطوان والبلاد العربية. ج 1، مراجعة وتنسيق وإضافات حسناء داود، إصدارات المجموعة الحضرية لتطوان مطبعة الهداية، تطوان.

² - حسن قرنفل، الفقر من الإحسان إلى... م. س، ص.5.

³ - أنظر : بخنة خليلي، الفقر بالمغرب الإسلامي مابين القرنين 7 و 9 الهجريين ... م. س، صص. 21- 25

رسم توضيحي
بعض معاني الفقر حسب بعض المعاجم



وبما أن المفهوم ورد بعدة ألفاظ أخرى مرادفة له كما سبقت الإشارة إليه، فقد وقع بعض العلماء و الباحثين في التباس¹ خصوصا فيما يخص لفظتي المسكين/ الفقير أيهما أسوأ حالا؟ و هل لهما نفس المعنى؟ فوقع نقاش و تقصي كل يقدم حججه و شواهدة العلمية للتدليل².

و الباحثة عموما في تحليها للنصوص المختلفة تخلص في النهاية إلى أن الفقر والمسكنة لفظتان يراد بهما معا الحاجة و ضعف الحال³.

من هذا المنطلق فالفقير في التراث العربي يبدو قبل كل شيء مستهلكا باحثا عن القوت، و يرهن مستقبله وكذا مستقبل عياله بتوفر مادة الاستهلاك، فلربما تأثرت جموع المصطلحات إذن بضالة الإنتاج و قناعة الأفراد المرتبطة هي أيضا بالنقص في الإنتاج، و انعدام غزارته في واقع اقتصادي عربي لا يخلو من تأثير الظروف الطبيعية فيه، و لهذا السبب يبدو الفقير، بدرجة متفاوتة غير مالك لأي مدخول، و كأنما العطالة عن العمل أقل وطأة و أطف تأثيرا⁴.

¹ - فبالرجوع إلى مؤلف محمد آستيتو نجد قد واجه صعوبة في تحديد من هم الفقراء، حيث يصفهم تارة بالفقراء و أحيانا أخرى بالسوقة و العوام، و مرة يتحدث عن الفئات الدنيا . وفي مباحث أخرى يتحدث عن العامة مقابل الخاصة، لذلك يشير إلى أن الفقر كان يهم على السواء عناصر النخبة بعد تقلبات الزمن لها: كالفقراء من العلماء و الفقهاء و الزهاد و الشرفاء و التجار و المفلسين من الأمراء. و التركيز عليها يعود لوجود مادة مصدرية مهمة عنهم، بما يعني أن الباحث أعطى حيزا واسعا لفقراء الخاصة. لذلك حسب محمد حبيدة فإن الباحث «...يوضح منذ البداية التباين الذي يميز فئة الفقراء من حيث كونها تجمع من أفقرهم الدهر، و من اختاروا الفقر طوعا وعبادة. ولذلك فهي لا تضم فقط الكادحين و السائلين و المتسكعين و المعتوهين، بل أيضا الميردين و المجذوبين و النسك. كما يستعرض في هذا السياق النعوت التي التصقت بالفقراء على النحو الذي تبوح به النصوص و المعاجم، و اللسان العامي أيضا، إذ يحصي ما يفوق المائة و الخمسين نعنا، نذكر منها البؤساء و الأراذل و الصعاليك و الجياع و المزاليط»، أنظر، دراسته، كتابة التاريخ قراءات و تأويلات، دار أبي ررقار للطباعة و النشر، الطبعة الأولى 2013، ص. 141.

² - بخته خليلي، الفقر بالمغرب الإسلامي ما بين القرنين 7 و 9 الهجريين ...، م. س، ص. 36.

³ - نفسه، صص، 38-39.

⁴ - الكراي القسنطيني، «الفقر و الفقراء في تونس (1945-1948)» ضمن، كتاب، المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي. تنسيق، د. الهادي التيمومي، المجمع التونسي للعلوم و الأداب و الفنون، بيت الحكمة- قرطاج، 1999 صص. 540-541.

2- المفهوم الاصطلاحي

أما على مستوى المنظور الاجتماعي والاقتصادي فظاهرة الفقر استقطبت اهتمام العديد من الباحثين كل حسب مرجعيته ومجال تخصصه، وقد خلصت معظم الدراسات عن الفقر إلى نوعين من النظريات، يلقي أحدهما المسؤولية واللوم على الضحية* (الفقراء)، وفريق آخر يلقي باللوم على اختلافات النظام الاجتماعي والاقتصادي في توزيعه غير العادل لمصادر الثروة على شرائح المجتمع. فالفقر عند فريق من علماء الاقتصاد¹ يعني عدم القدرة في الحصول على الاحتياجات الضرورية لعدم توفر الملكية التي يمكن الاستعانة بها في عملية الإنتاج نتيجة قلة الدخل أو انعدامه بصورة شبه دائمة، أو أنه مستوى من إجمالي المكسب أو الدخل الذي لا يكفي للحصول على الضروريات اللازمة، وهو العجز عن إشباع الحاجة الأساسية أو الضرورية سواء ذلك بالنسبة للأفراد أو الشعوب، و يعني ذلك أن الفقير لا يجد طعامه أو ملبسه أو مسكنه بشكل كاف لاحتياجاته.

والباحثة بختة خليلي في تناولها للظاهرة في بحثها - المشار له سابقا - تستعرض لنا فهما لعدة مختصين على هذا المستوى منه فهم حمدي عبد العظيم الذي اعتبر الفقر معناه أن الفرد لا يمتلك شيئا أما الشعوب الفقيرة هي التي تكون أغلبية مواطنيها من المعدمين، وذلك تمييزا لهم عن أولئك الأغنياء الذين يمتلكون معظم وسائل الإنتاج، لكن يؤكد بأن هذا التعريف ارتبط بالفكر السائد إبان النظام الإقطاعي حينما كان المجتمع ينقسم إلى ملاك و معدومين، فالملاك يملكون المال و النقود، و الفقراء لا يملكون شيئا، وينظر إلى الملكية المصدر الوحيد للدخل، ومن ثم فإن الذي لا يمتلك شيئا لا يتوفر له دخلا يعيش عليه.

ليخلص في هذا الإطار إلى أن الفقر، هو عدم القدرة على الحصول على الاحتياجات الضرورية نتيجة عدم توفر الملكية التي يمكن الاستعانة بها في عملية الإنتاج و الحصول على عائد، و نتيجة قلة الدخل أو انعدامه بصورة شبه دائمة². كذلك و منذ زمن طويل استخدم الدخل النقدي أو الاستهلاك للتعرف على الفقر و قياسه للوصول إلى الحد الأدنى لمستوى الحياة المعيشية، أو الحد الأدنى للعيش أو البقاء³.

أما الفقر بالنسبة للمدرسة الماركسية مثلا، لا يرتبط إلا بالواقع المادي الاقتصادي والاجتماعي الجماعي، فهو نتاج للاستغلال الطبقي، إذ تعتمد بعض الجماعات المالكة لوسائل الإنتاج (طبقة مستغلة) إلى الانتفاع بمجهود جماعات أخرى (طبقة مستغلة)، والهيمنة على كل دواليب الحياة الاقتصادية و السياسية، فتصير إذن الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج بداة المدخل الرئيسي لوجود

*- أي أن الفقر صفة تلتصق بالأفراد العاجزين و غير الراغبين في العمل، حيث كان الفقراء يعتبرون مقصرين إزاء ذواتهم، بفعل كسلهم و اتكالمهم على الغير و رغبتهم في العيش على الصدقات و إعانات و كرم أهل الخير و الإحسان. بل أولئك الذين يعتقدون أن الفقر واقع حتمي تخرج أسبابه عن إرادة البشر فلا بد من القبول به لدرجة أصبح معه كثيريرات قدسية له تجعله قدرا ربانيا، أي شيوع اعتقاد إيماني مفاده أن الإله يمتحن الفقراء بالفقر لتزكيتهم.

1 - «ترجع الرغبة في تحديد الفقر بشكل موضوعي و دقيق إلى النقاش الذي ظهر في القرن 19 في بريطانيا من أجل حصر عدد اللذين يعدون من قبيل الفقراء، علما بأن بريطانيا كانت من أولى الدول الأوروبية التي اعتمدت الرأسمالية، و من ثمة كان المأمول هو أن تكون بريطانيا أيضا من الدول الأولى التي تخلصت من الفقر و الفقراء» عن: حسن قرنفل، الفقر من الإحسان إلى...، م. س، ص. 70.

2- بختة خليلي، الفقر بالمغرب الإسلامي ما بين القرنين 7 و 9 الهجريين ...، م. س، صص. 30.

3- مثلا: «أجرى Rowntree مسحا شمل تقريبا كل أسرة من أسر الطبقة العاملة في مدينة «يورك» الإنجليزية في سنة 1899 للحصول على معلومات عما تكسبه و تنفقه و بناء على هذا المسح قدر أن أسرة مكونة من خمسة أفراد (أب و أم و 3 أبناء) تنفق للحفاظ على الكفاءة البدنية 21 شلنا و 8 بنسات في الأسبوع كحد أدنى و اقترح مبالغ أخرى للأسر ذات الحجم و التركيب المختلفين، و قارن بين خطوط الفقر هذه و بين ما تكسبه الأسر فوصل إلى أن 10% من السكان في هذه المدينة كانوا يعيشون في فقر (تحت حد الإنفاق الضروري) و بناء على ذلك عرف الفقر بأنه مستوى من إجمالي الكسب لا يكفي للحصول على الحد الأدنى من الضروريات اللازمة للحفاظ على مجرد الكفاءة البدنية بما في ذلك الأغذية و إيجار المسكن و غير ذلك...» عن: زينب نجاري، المحددات و الأبعاد السوسيو اقتصادية ...، م. س، ص. 34.

الفقراء (إفقار)، و تبعا لذلك فان الحل الجذري للفقر و البحث عن وضع أحسن للفقراء يمر حتما عبر تغيير العلاقات الاقتصادية والاجتماعية¹.

في حين هناك منظور اجتماعي خاص للفقر، حاولت الباحثة زينب النجاري إبرازه في بحثها مركزة على تصورات عديدة منها فهم ابن خلدون الذي يرجع الفقر لقلّة الأعمال و قلة العمران وهو عكس الغنى والرفاه، فلذلك يشير لأهل بعض المناطق الصغيرة الضعفاء في أحوالهم المعيشية و المتقاربين في الفقر و الخصاصة، نظرا لأن أعمالهم لا تفي بضرورتهم، و احتياجاتهم، لذا هم مساكين محايوج إلا في القليل النادر، بل ابن خلدون في تدقيقه لمفهوم الفقر يضع مقارنة بين حال فقراء بعض المدن في عهده و درجة فقرهم و حاجتهم، بالنظر إلى اختلاف الأحوال بين الأمصار في الغنى و الرفاه، فيقارن بين السائل بفاس الذي اعتبره أحسن حالا من السائل بتلمسان أو وهران، فالفقير بفاس قد يشتري الأضحية حسب مستواه المادي و يتوفر على بعض سبل العلاج و له نوع من الملابس و الماعون و الأنية بمطبخه، وهو ما لا يتوفر عند نظيره بتلمسان². وفي إطار تعميق التحليل بخصوص الفهم الموضوعي والدقيق للفقر قام جورج زيمل (*Simmel Georg*) 1858-1918 في كتابه الفقراء³، بدراسة الفقر من خلال علاقته بالمساعدة الاجتماعية و المجتمع، إذ بالنسبة له أن يكون شخص ما فقيرا لا يعني أنه ينتمي إلى فئة الفقراء، فيمكن أن يكون فقيرا أو تاجرا أو فنانا أو مستخدما، ولكن يبقى منتما إلى فئة محددة معروفة بنشاط معين أو وضعية خاصة، غير أن الموقف الجماعي الذي يقوم به المجتمع ككل إزاءه هو الذي يعرفه بالفقير، فأوضاع الفقراء لا تفهم إلا من خلال علاقتهم بالنظام الاجتماعي. ليس الفقراء باعتبارهم فئة اجتماعية أولئك الذين يعانون من الحرمان، ولكن هم الذين يتلقون مساعدات أو يجب أن يتلقوا المساعدات حسب المعايير الاجتماعية. و بناء على هذا لا يمكن أن يفهم الفقر فهما سوسيولوجيا حقيقيا في ضوء مجرد انخفاض الدخل أو الحرمان، بل في ضوء الاستجابة الاجتماعية لانخفاض الدخل. فهو مفهوم نسبي من تكوين المجتمع، وهو الذي يحدد من الفقير. والفقراء كالغرباء في المجتمع، غالبا ما ينظر إليهم كعناصر خطيرة أو غير مرغوب فيهم، أو غير نافعين في هذا العالم. إنهم عالة على المجتمع، و يتمنى هذا الأخير لو لم يكونوا موجودين⁴.

البيّن عبر هذه النماذج من التعريفات - التي تعمدنا عدم الغوص في شرحها - أن الفقر تتداخل في تعريفه عدة معايير تتحكم فيها مرجعيات مختلفة، فلا يمكن البتة في نظرنا الأخذ بإحداها دون الأخرى، لأن الفقر هو حصيلة عدة معطيات متفاعلة قد تتقاسمها عدة مجتمعات بالرغم من تفاوت المجالات الجغرافية و اختلاف الفترات الزمنية، وهو ما يتطلب أثناء المعالجة التاريخية للظاهرة الأخذ بعين الاعتبار خصوصيات المجتمع و طبيعة ذهنيته و نظمه الاقتصادية والسياسية. أي استقرار واقعه التاريخي الذي أنتج الفقراء وفق المحددات الاقتصادية و السوسيولوجية و العلاقات الناظمة فيما بينها.

ثانيا: الأسباب الطبيعية* المنتجة لظاهرة الفقر بالمجتمع التطواني خلال القرن التاسع عشر

من المعلوم أن الفقر يأتي بفعل تداخل جملة من المسببات منها الكوارث الطبيعية التي تعد أكثر حضورا في تاريخ المغرب وأشدّها

¹ - الكراي القسنطيني، « الفقر و الفقراء في تونس (1945-1948) » ضمن، كتاب، المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي ...، م. س، صص. 538-539.

² - زينب نجاري، المحددات و الأبعاد السوسيو اقتصادية...، م. س، صص. 32.

³ - G , Simmel, *les pauvres*, paris , PUF, 1998.

⁴ - pp, 14-16. *ibid*,

* - لا تختلف هنا في كون أن نشأة الفقر وانتشاره لا تبرز بشكل واضح في الحوليات المغربية للمرحلة، وهذا ما يصعب على الباحث تكوين صورة متكاملة عنها، فيظل البحث عن مصادر أخرى أولوية لتجاوز هذا النقص.

إفقاراً للسكان لما لها من انعكاسات على البنيات الاقتصادية والاجتماعية¹، لكن وقبل التطرق إلى دورها في هذا المستوى يجدر بنا التساؤل: ما هي بعض تلك الكوارث الطبيعية التي أسهمت في إفراز ظاهرة الفقر بالمجال التطواني خلال القرن التاسع عشر؟ كيف أنتجت الفقر بالمجال التطواني، وأين يتجلى ذلك؟

انطلاقاً من هذا، سنحاول - حسب ما توفر من المادة المصدرية- التعرض لأصناف الكوارث الطبيعية التي عرفتها تطوان خلال الفترة مدار الدراسة، وكانت طرفاً أساسياً في انتشار الفقر محولين تلمس التأثيرات التي تمخضت عنها في بعض الجوانب.

أ. الأوبئة

فتكت بالكثير من العوائل، خاصة الفقيرة منها، إذ شكلت هاجساً خطيراً لدى شرائح مجتمع المجال التطواني، لاسيما العامة المسحوقة، لما خلفته من سلبات مدمرة مست البنية الاقتصادية والاجتماعية والديمقراطية، والتي كانت تواجه بطرق بالية ومتجاوزة تدل على العجز المجتمعي والمخزني².

فالنسيج المجتمعي التطواني خلال القرن التاسع عشر، ابتلي بانتشار عدة أوبئة يلخصها الجدول التالي:

جدول 1: أوبئة انتشرت بالمجال التطواني خلال فترات القرن التاسع عشر.

السنة هـ / م	مكان وطبيعة الوباء	المصدر وبعض الملاحظات
1214 - 1215 هـ / 1798 - 1800 م	تطوان / الطاعون الرئوي الدملي ³	- محمد داود، تاريخ تطوان، مراجعة وتصحيح حسناء داود، منشورات مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة، مطبعة دار أبي رقرق للطباعة والنشر، طبعة 2013، مج 3، ص. 219. ويذكر أنه ضرب تطوان وطنجة في شهر نوفمبر وتمادى إلى السنة التالية ضاربا الجهات التي أخطأها سابقا ولم ينقطع أثره إلا مع نهاية 1800 ⁴ .
1233 هـ / 1818 - 1819 م	تطوان / الطاعون	- أحمد الرهوني، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي تطوان، ج 6، صص. 84 - 85. - محمد داود، تاريخ تطوان، م. س، مج 3، ص. 233.

¹ « وأن دراستها تمكن من فهم الكثير من الأشياء الغامضة، إذ تمس كل زوايا المجتمع من العمران إلى الديمغرافيا، من الاقتصاد إلى الاجتماع، ومن نمط العيش وأشكاله إلى أنماط التفكير وأساليبه» عن إدريس أبو إدريس، «مساهمة في التاريخ الديمغرافي للمغرب: المجاعات وأثرها على النمو الديمغرافي أواخر القرن 16 - النصف الأول من القرن 18»، مجلة كنانيش، وجدة، ع 1، 1999، ص. 139.

² يشير بذلك الباحث بندريس في مقاله: «... هو أن المغرب لما كانت تلم به الأوبئة والكوارث كباقي الدول الأخرى، كان الجهاز المخزني لا يملك القدرة في الميدان الصحي لمكافحة الأداء الذي يضره بقسوة ويبقى عرضه للإجراءات التعسفية التي يملئها عليه الممثلون الديبلوماسيون، الأجانب، المقيمون بطنجة...». «وثائق جديدة عن وباء الكوليرا بتطوان لسنة 1868 «بندوة: تطوان قبل الحماية (1860-1912)». مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي بتعاون مع المجموعة الحضرية لتطوان. نظمت أيام 12-13-14 نوفمبر 1992. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، مطبعة الهداية - تطوان، ص: 63

³ محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين 18 و 19، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: رسائل وأطروحات رقم: 18، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، طبعة 1992، ص. 91.

⁴ المرجع، نفسه، ص. 94.

و ترجع الإشارة الأولى إلى ظهور الوباء في هذه المدينة إلى شهر شتنبر 1819... فقد ظل خفيفا بتطوان في بدايته ولم يشتد إلا في ربيع 1819 ¹ .		
محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة... م. س، ص. 172. وفي رسده لسير هذا الوباء يؤكد الباحث أنه انطلق من فاس ثم مكناس ووزان والقصر، وطنجة وتطوان وغيرها، لينقطع في جميع الموانئ في غضون أكتوبر 1835، إلا أنه عاد للظهور بطنجة وتطوان شهر دجنبر.	تطوان / الكوليرا «بوكليب»	1250 هـ / 1834 م
- محمد داود، تاريخ تطوان، م. س، مج 3، ص. 313. - أحمد الرهوني، عمدة الراوين... م. س، ج 5، ص. 83. - أحمد الرهوني، المرجع نفسه، ج 6، ص. 26.	تطوان / الكوليرا	1271 هـ / 1854 م
- أحمد الرهوني، عمدة الراوين، م. س، ج 1، ص. 204. - المرجع، نفسه، ج 4، ص. 69.	تطوان / الكوليرا	1272 هـ / 1855 م
- محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات... م. س، ص. 189. حيث يؤكد الباحث بأن انتشاره كان نتيجة الحملة الإسبانية على تطوان والفرنسية على بني يزناسن.	تطوان / الكوليرا	1275 هـ / 1276 هـ 1859 - 1860 م ²
- محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات... م. س، ص. 215. - عبد الغفار بندريس العلمي، «وثائق جديدة عن وباء الكوليرا بتطوان 1868» ضمن ندوة، تطوان قبل الحماية... م. س، صص. 37 - 63. ويؤكد الأستاذ بندريس أن الكوليرا انتشرت بالمدينة سنة 1868 وليس شهر دجنبر 1867 كما يشير لذلك البزاز.	تطوان / الكوليرا	1284 هـ / 1868 م
- محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات... م. س، ص. 271. وأشار الباحث معتمدا على إحدى الوثائق كونه ظهر بالمدينة في 29 غشت 1878، أي بعد ظهوره بمكناس بحوالي شهر مخلفا مع الجذري خسائر بلغت ذروتها يوم 12 شتنبر.	تطوان / الكوليرا	1294 هـ / 1878 م
- أحمد الرهوني، عمدة الراوين، م. س، ج 5، صص. 155 - 157. - محمد داود، تاريخ تطوان، م. س، مج 10، ص. 89.	تطوان / الكوليرا	1313 هـ / 1896 م

¹ - نفسه، ص. 116.

² - بخصوص انتشار عدوى الكوليرا بالمدينة خلال هذه السنة جاء في إحدى الكتابات الأجنبية أنه « وصل من طنجة لتطوان في 16 شتنبر 1859 وقد حصد 21 شخصا، وفي 26 من نفس الشهر تم العثور على 36 جثة بالملاح، بينما بلغت النسبة العامة بالمدينة قرابة 800 ضحية من أصل 20000 نسمة، ثم بعد ذلك انتشر الوباء إلى باقي المدن كالقصر الكبير والرباط...» راجع كل من،

- Docteur, Vincent et Collardot, *Le choléra d'après les neuf épidémies qui ont régné à Alger, depuis 1835 Jusqu'en 1865*. Paris, Vitcor Rozier, 1867, p.355.

-Joan,Serrallonga urquidi, «*La Guerra de África y Cólera (1859-1860)*» Hispania.Nº 58,1998.

دون شك فإن هاته الجوائح التي ميزت المجال التطواني خلال القرن التاسع عشر كانت لها تأثيرات عميقة في حياة شرائح المجتمع التطواني، إذ تعددت نتائجها ما بين الديمغرافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، فكانت تحدث رجة عميقة في جوانب حيوية من حياة الناس، فتجعل سافلها على أعلاها، معيقة للتطور ونمو بنيان المدينة ومحيطها القبلي، مؤثرة سلبا في كل الفئات سواء النخبة المترفة أو الغنية أو الضعيفة والمعوزة، وبالنسبة لهاته الأخيرة يظل المتوفر من النصوص بخصوص ما تكشفه عما خلفته هاته الأوبئة من بؤس وفقر لدى شرائحها مقتضبا وضيلا، ذلك أن مؤرخي المرحلة كثيرا ما يمرون عليه سريعا ويقتضبونه اقتضابا كما لو أن لا فائدة من الإطالة فيه، هذا الشح في المادة المصدرية المتخصصة، يجعلنا نأخذ النصوص بظاهرها وعمومها أحيانا، آملين رسم صورة عامة لحجم تلك المعاناة التي ظلت لصيقة بالفئات الضعيفة والمسحوقة. وبالتالي: ما هي الانعكاسات الديمغرافية لتلك الأوبئة والأمراض بالمجال التطواني؟

لا تخفى نتائج هذه الأوبئة والأمراض على البنية الديمغرافية للسكان، فرغم أننا لا تتوفر على معطيات رقمية كافية خاصة بما فإن الشيء البديهي هو أن تأثيرها كان واضحا، وآثارها وخيمة سكانياً وبوجه خاص على الشرائح الفقيرة والمعدمة، من حرفيين وفلاحيين ورعاة ومهشمين. فعدواها يأتي على الأخضر واليابس، وهو ما يسهم في ارتفاع الموتان الذي يسجل أرقاما قياسية عندما تستفحل الأزمة، إلى درجة يجد معها الناس صعوبة في دفن موتاهم، إذ تترك الجثث في بعض الأحيان مرمية على قارعة الطريق أو في المساكن دون دفن، مخافة العدوى، وإذا دفنت يكون ذلك بدون كفن ولا صلاة. وهو ما ينتج ثغرات ديمغرافية خطيرة، يتطلب تجاوزها عقودا من الزمن. هذا إذا لم تعقب الأزمة أزمة أخرى قريبة، لا يفصل بينهما وقت طويل.

وهو ما تعبر عنه هاته النصوص الخاصة بتطوان¹ إذ ذكر الفقيه العدل الشريف سيدي محمد بن الهاشمي أفيلال في مجموعه على وباء 1214 / 1215 هـ / 1800-1801م، استطرادا فقال بعد كلام: « حيث كان يموت في بلدتنا تطوان كل يوم مائة وثلاثون يزيد بعشرة ينقص بنحوها، وبقي في هذه العدة نحو من شهرين أو أكثر، وبلغ يوما واحد مائة وخمسين، وأما مدة بقائها (أي الموت يعني الوباء) من أولها إلى آخرها فيما يزيد على سنة بنحو شهرين أول ظهورها رمضان 1214²». ونفس الواقع يبرز خلال وباء عام 1234هـ/1819م، فيما يخص ارتفاع عدد الضحايا بالوباء إذ تشير رسالة كتبها الحاج عبد الرحمان مدينة من تطوان إلى قريبه التاجر الحاج عبد الكريم ابن الطالب بتاريخ 25 جمادى الأخيرة عام 1234 هـ، وكان ابن الطالب إذ ذاك بفاس، وقد أخبره فيها بأن الموتى يوميا بالوباء في تطوان، كان قد بلغ عددهم ثمانين شخصا واليوم أخذ العدد في نقصان فبلغ ستين فأقل.. إلخ³، بل حصاد الأرواح بسبب الوباء يظل الميزة البارزة، كذلك بخصوص هجمة وباء 1271 هـ / 1854م على المدينة، فقد ذكر

1 - لا بد من التنبيه هنا أن الأوبئة التي عرفها المجال التطواني همت الحاضرة وكذا محيطها القبلي فمثلا بالنسبة لوباء 1895 فقد: « نفشى في الأسبوع الأول من أكتوبر في القبائل المجاورة لهذه المدينة كبنى معدن في الشمال الغربي، والقلالين في الشمال الشرقي. ثم داهم في حدود 16 أكتوبر بني مصور ودراس وبني مسارة. ومن المحتمل أن تكون الشاون قد أصيبت، إذ أن الوثائق تتحدث عن فرار الكثيرين إليها من تطوان وكانت الكوليرا في نهاية السنة ماتزال متفشية وسط هذه القبائل، مخلفة 40 إلى 50 ضحية في اليوم». راجع محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب ...، م. س، ص. 336.

2- محمد داود، تاريخ تطوان، م. س، مج 3، ص. 219.

3- محمد داود، تاريخ تطوان، م. ن، مج 3، ص. 233. وبخصوص انتشاره بالمدينة يرجع: إلى البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب ..، م. س، ص. 116.

الفقيه سيدي المفضل أفيال أنه خرج من فاس يوم الثلاثاء خامس ربيع الثاني (1271 هـ) ودخل تطوان في اليوم الثاني عشر منه، ثم بلغ الوباء تطوان في أوائل ذي القعدة من العام المذكور، وبقي بها نحو ثلاثة أشهر، وقد بلغ عدد الموتى به في اليوم الواحد سبعين شخصا، وذلك العدد أقصى ما بلغه عدد الموتى في يوم واحد بتطوان، بل الكارثة الديمغرافية كانت أسوأ حين صادفت حرب الستين وباء الطاعون سنة 1272 هـ /1855م. « واندثر أهلها ما بين الطاعون الذي كان بتطوان عام 1272م، بين احتلال الإصيان لها عام 1276م. ولم يبق لهم عين ولا خبر، ولا أطلال ولا أثر »¹.

الصورة تكتمل بشكل دقيق عند البزاز الذي قام بتحليل أحد التقارير الأجنبية للعميل الفرنسي بتطوان بخصوص الكوليرا لسنة 1895م وكذلك لسلسلة من مراسلات القنصل الإسباني بالمدينة ابتداء من 17 شتنبر إلى 20 دجنبر 1895م وهي ضمن ملف 289 /A.P.G.M² فعبر جدول ضمنه معطيات رقمية طويلة الفترة تخص عدد الموتى في الطوائف الثلاث بالمدينة، يخلص إلى أنه إذا أخذنا بعين الاعتبار الوفيات اليومية العادية التي نفترض أن تكون 25 في اليوم، أو 750 في الشهر، فإذا طرح هذا الرقم من مجموع عدد الوفيات المسجل بالجدول، سنحصل على الرقم 865 الذي يمكن اعتباره الحصيلة الكلية للخسائر بتطوان، مما يعني أن سقوط عدد الضحايا بلغ 28.43 في اليوم. ولما كان عدد سكان المدينة يقدر بحوالي 20.000 نسمة، فإن النسبة العامة للخسائر تصل إلى حوالي 4.5%.

عموما فقد انحصرت هذه الخسائر بين المسلمين واليهود، فهناك 637 ضحية مسلماً و219 يهودياً مقابل 9 ضحايا من المسيحيين، جلهم من الإسبان، وسواء تعلق الأمر بالمسلمين أو اليهود، فإن الوفيات انحصرت بين الفئات الفقيرة، باستثناء أقلية محدودة من الأغنياء³.

ب. القحوط وآفة الجراد والمجاعات

عرفت مدن المغرب وبواديها قديماً وحديثاً مجاعات متواترة وشبه مسترسلة كانت في كل الأحوال نتيجة حتمية لسببين رئيسيين: أولهما القحط والجفاف، أي احتباس المطر أو عدم كفاية كميته، وما يتبع ذلك من تيبس يصيب الزرع والضرع وهلاك للثمار وعدم ظهور الكلاء.

1 - أحمد الرهوني، عمدة الراوين، م. س، ج4، ص. 69. ويبدو أن وباء الكوليرا خلال الإحتلال الإسباني للمدينة قد أسهم أيضاً في إسقاط ضحايا إسبان وهو ما يشير له أحد الكتاب الأجانب في ثنايا مشاهداته ص 260، قائلاً: «... وهناك قضى الشهرين والنصف من يواسي، على رؤوس الأسرة المرضى مرضى الطاعون والمختضرين...» و في الصفحة 378 يقول: «...مدة أربعة عشر يوماً، وهو مخيم فقدت فيه عدداً من أصدقائي، ضحايا الكوليرا أو الرصاص...» راجع: الجزء الثاني من، حرب إفريقيا، م. س. كذلك أشار لهذا الوباء الكاتب الإسباني، بينيتو بيرت غالدوس، في عدة مقاطع من كتابه، فمثلاً يقول بخصوصه، «... كان المصابون بداء الكوليرا مختلفين بالجرحي إلى أن صدر الأمر بعزلهم وتفريقهم عن بعضهم، دون أن يتحقق العزل والتفريق نظراً للعراقل المادية...». أنظر، عيطة تطاون، م. س، ص. 130.

2 - أنظر: الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب .. م. س، هامش. ص. 334.

3 - محمد الأمين البزاز، م. س، ص. 335. كما أشير هنا كذلك للتحليل الذي قام به الدكتور بندريس عبد الغفار لتسرع وثائق إسبانية بخصوص وباء 1868 حيث أبرز حجم الوفيات التي ميزت المدينة مستخلصاً أنه في ظرف 37 يوماً حصد الوباء 433 شخص. أنظر مقالته السابقة «وثائق جديدة...» ضمن ندوة: تطوان قبل الحماية ... ، م. س، ص. 63.

وثانيهما اجتياح الجراد الصحراوي للمغرب في أسراب كثيرة، وتجريده للأرض من المزروعات والأعشاب، وسلخ الأشجار والمغروسات من أوراقها وقشورها، وترك الناس في حيرة وفاقة وخصاص ومجاعات وغلاء¹. والجهة الشمالية بما فيها مدن وبوادي جبالة كانت خلال القرن التاسع عشر مسرحا لهذه الجوائح التي خلفت آثارا على المجال الطبيعي للجهة وواقع إنسانها الاجتماعي والاقتصادي. فقد دلت الشذرات المتناثرة في بعض المصادر المحلية لتاريخ المنطقة، وبعض الدراسات معاناة الأهالي من هاته الآفات، يمكننا رصد أمثلة منها كالتالي:

جدول 2 : جوائح سادت المجال التطواني خلال القرن التاسع عشر.		
الفترة الزمنية : هـ/م	نوع الجائحة	المتن الدال عليها من المصادر أو المراجع
1231 هـ/1816م	انتشار الجراد	«إلا أننا نعلم أن السنة تميزت بغزو الجراد الذي وصل إلى المناطق الشمالية محدثا خسائر كبيرة بالمحاصيل» ² .
1241-1242 هـ /1825-1826م.	مجاعة.	« في نفس المدة استوردت موانئ أخرى (تطوان، العرائش، الرباط) حوالي 17400 فانكة...هذه العملية الاستيرادية خففت بدرجة محسوسة من حدة الغلاء والجوع في الموانئ» ³ .
1262 هـ /1846م.	جفاف أعقبته أزمة غذائية وغلاء.	« وصلنا كتابك مخبرا بارتفاع سعر الزرع بالثغر التطواني صانه الله، لوقوع الجذب فيما والاه من السهل والجبل » ⁴ .
1274-1275 هـ /1858-1859م.	جفاف أعقبته أزمة غذائية وغلاء.	« ذكر الفقيه سيدي مفضل أفيلال في كناشه أنه وقع القحط بتطوان عام 1274 » ⁵ . « ثم ذكر سيدي المفضل أفيلال أنه وقع القحط أيضا بتطوان عام 1275 وقال إن الناس خرجوا في 10 رمضان منه يستسقون» ⁶ .
1280-1281 هـ /1864-1865م.	جفاف وجراد أعقبهما جوع وغلاء.	« بيد أن هذا الغلاء، الناجم عن ضعف المحاصيل في الشمال، كان ما يزال محدودا...وقد وجه السلطان بالفعل أوامره إلى أمناء المراسي بهذه المناطق لشراء الحبوب لمواجهة القحط في الشمال» ⁷ .
1283-1284 هـ /1867-1868م.	المجاعة والغلاء.	« اشتد الحال بتطوان من كثرة الغلاء، ووقع الهيف في الناس، ومات عدد كثير من البرد والجوع» ⁸ .

¹ إبراهيم كردية، أمثلة من مجاعات وأوبئة وكوارث ضربت أسفي وباديتها منذ الاحتلال البرتغالي وحتى عام البون، مطبعة نور، سفي، طبعة 2008، ص.11

² محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب .. م. س، ص.102

³ المرجع، نفسه، ص.121.

⁴ محمد داود، تاريخ تطوان، م. س، مج9، ص.247

⁵ المرجع، نفسه، مج3، ص.334

⁶ تاريخ تطوا، مرجع، سابق، ونفس المجلد، ص.335. ويذكر هذا القحط كذلك في نفس المصدر بالمجلد 7، ص.124 و ص.321.

⁷ محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب .. م. س، ص.195

⁸ محمد داود، تاريخ تطوان، م. س، مج 6، ص.82

« وقد استمر الجفاف طيلة شتاء 1878 حيث... لم تسجل سوى بعض التهاطلات الضعيفة في الأقاليم الشمالية... وهكذا كانت سنة 1878 سنة ييس وقحولة، امتدت خلالها جيوب الجفاف إلى مختلف أنحاء البلاد» ¹ .	جفاف.	1295 هـ / 1878م.
« ولما أصابهم في هذه الأعوام من الجوائح بالجراد ونقص الثمرات » ² .	الجراد.	1311 هـ / 1894م.
« وقلت وأنا بفاس، إذ ورد علي الخبر بأن أهل تطوان صلوا صلاة الاستسقاء في مصلى الجنائز بباب المقابر، فأمطروا، بفضل الله ورحمته» ³ .	الجفاف.	1314 هـ / 1897م.

عبر هذا الجرد لهذه المعطيات التاريخية، أول ما ينتاب القارئ بخصوصها، هو ذلك التساؤل المعبر عنه كالآتي: كيف أسهمت الأوبئة والقحوط والجفاف والجراد في نشر البؤس والفاقة بالمجال التطواني وأطرافه؟ ماهي بعض الفئات البئيسة التي أفرزتها؟

جاء في إحدى الوثائق زمن السلم والاستقرار، والتي تشير لما كانت تتوفر عليه فضاءات تطوان من وجود للفئات الضعيفة والمسحوقة، ما يلي: « وبعد فبوصول كتابنا هذا إليك فرق على ضعفاء تطوان ألف مثقال، بالإفراد واعلمنا بعددهم وما صار لكل واحد منهم والسلام »⁴. لكن الأكيد أن مثل هاته الجوائح أسهمت في ازدياد عددهم وأصنافهم، فمع توالي سنوات الجفاف يكثر المتسولون ومن لا معين لهم بين دروب المدينة وأزقتها « كان للكثير من أغنياء المدن متسولوهم الخاصون الذين يأتون إليهم كل يوم طالبين ما يسدون به رمقهم، بل وكان بعض المعوزين يوجه رسالة إلى غني من الأغنياء يستعطفه، شارحا فيها حالته البائسة »⁵. ومن الشواهد في هذا الإطار تذكر تلك الرسالة التي أرسلها المدعو محمد الشياظمي، بائع الخبز بسوق الغرسة الكبيرة بتطوان إلى التاجر محمد بن عمر بجة، جاء فيها: « فإني طالب منك أن تغيثني إغاثة ملهوف بما أطلق الله يديك لتغيثني لله، وابتغاء مرضات (كذا) الله، لأني مسكين وذو عيال وغريب في البلاد »⁶. والراجح أن هؤلاء الأفاقيين الذين اكتسحوا المدينة زمن المسغبة يعود إلى ذلك النزوح الكثيف للعديد من القرويين الباحثين عن ملجأ يقيهم المصاعب وشح الطعام، نتيجة انهيار الاقتصاد القروي بالمجال القبلي التابع لتطوان.

فالأكيد هنا، أن مثل هاته الجوائح الطبيعية لعبت دورا كبيرا في إفقار ساكنة البوادي، وانعكست سلبا على أوضاعهم المعيشية، وزادت من معاناتهم، زيادة على اضطرابهم لأداء الواجبات والكلف. ورغم لجوء المخزن في كثير من الأحيان إلى تأجيل الأداء إلى وقت الغلة، أو الإعفاء منه بصفة كلية، فإن خطورة هذه الآفات جعلت الفلاح المغربي في مواجهة عوامل تفكير متعددة كانت تترك آثارا وخيمة على أوضاع العديد من القبائل والمجموعات البشرية.

1- محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة...، م. س، ص. 238.

2- محمد داود، تاريخ تطوان، م. س، مج 10، ص. 344.

3- أحمد الرهوني، عمدة الراوين، م. س، ج 10، ص. 205.

4- تاريخ تطوان، م. س، مج 10، ص.

5- محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب...، م. س، ص. 355.

6- أوردها البزاز، بالمرجع نفسه، و الصفحة نفسها، نقلا عن أحمد التوفيق في دراسته، المجتمع المغربي....، مرجع، سابق.

كان السكان يعانون من اكتساح الجراد لأراضيهم في كثير من السنوات، وإتيانه على محصولاتهم الزراعية، لأن وسائل محاربه كانت تقليدية، ولم يكن لدى بعض سكان البوادي من سبل مواجهته سوى الرضوخ لأمره وانتظار رحيله. ويضاف إلى الجراد عامل الجفاف الذي يحول دون قيام سكان القبائل بالأنشطة الفلاحية الكفيلة بضمان قوتهم، وجمع ما يمكن أن يؤديه للمخزن من أموال. وقد لعب هذان العنصران إلى جانب الأوبئة الفتاكة دورا كبيرا في تدهور الأوضاع الاجتماعية لسكان العديد من البوادي في فترات مختلفة¹، وهو ما سينتج شرائح مختلفة من اللصوص، ذلك أن انتشار ظاهرة قطع الطرق والسطو على القوافل التجارية ونهب قطعان الماشية كان إلى حد ما نتيجة لتفكير فئات واسعة من سكان البوادي وتهميشها²، وهذه الظاهرة ستعرف انتشارا واسعا خلال المرحلة بنواحي مدينتي تطوان وطنجة وفضائهما القبلي.

فبالنظر للأثار التي خلفتها هذه الكوارث على المجالات المغربية آنذاك، فقد رأى أحد الدارسين الأجانب، بأن تردد المجاعات في المغرب لم يكن ناتجا فقط عن الجفاف وهجمات الجراد، بل أيضا عن ظاهرة تراكم الأزمات. فأثر السنوات العجاف يظل ساري المفعول حتى خلال السنوات الممطرة، مثلا، في الحريف المطر الذي يعقب سنة الجفاف يكون الفلاح منهكا والبذور محدودة ودواب الحرث قليلة وضعيفة. فتقلص المساحات المزروعة وتضعف الإنتاجية، وبالتالي حتى في السنوات الممطرة قد يظل شبح المجاعة قائما. وهكذا كانت مدة الأزمة تتحدد بتفاعل عاملين: مستوى الإنتاج في السنوات العجاف، ومستوى المدخرات الغذائية أي فائض السنوات السمان³. ثم أن قوة تأثير هذه الكوارث كانت أقوى باتجاه المناطق الداخلية للمملكة بخلاف الشمال، والسبب يعود حسب أحدهم، للمساعدة الإسبانية والبرتغالية على مستوى مد المناطق الشمالية بمواد غذائية بأثمنة جد بخسة⁴.

هكذا، يمكن القول إن موجات الأوبئة إلى جانب نظيرتها من الجفاف والمجاعات، لم تسمح بحدوث تطور إيجابي في الحياة الاقتصادية للشرائح المنتجة بالمجال، وإنما أسهمت في تقلص المساحات المزروعة وإحداث خلخلة في التوازنات الاقتصادية لكل من الحرفي والتاجر والراعي والفلاح، فمثلا غالبا ما يرتبط النشاط الحرفي والتجاري بالقطاع الفلاحي، وتعرض هذا الأخير للضرر يعني المساس بهما معا، لأن القرى كانت غالبا هي المزود الأول للقطاعين بالمواد الخام. من جهة أخرى، فتأثير الأوبئة كان لها إسهام كبير في فرار اليد العاملة من المدينة نحو مناطق آمنة، وهذا ما كان يؤدي إلى اضمحلال الكثير من الورشات الحرفية، و تراجع حركية الرواج التجاري الذي سينهار حتما أمام القلة في السلع، و ضعف القدرة الشرائية للريعية⁵.

¹ - علي بنطال، آثار الضغط الجبائي في تطور العلاقات بين المخزن والقبائل 1894-1912. بحث لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 2003/2004، ص.288

² - نفسه، ص.317

³ - محمد حبيذة، «عرض ببليوغرافي، لكتاب نيكولا ميشيل، إقتصاد المعاشات في مغرب ما قبل الحماية»، مجلة هيسبريس قودا، العدد XL مجلد فريد 2005، منشورات كلية الآداب بالرباط، ص.119.

⁴ - Ramón Lourido Díaz, « La ciudad y región de Tetuán durante el Sultánato de Muhammad III a través de la documentación española. »Tétouan au 18^{ème} siècle (1727-1822). Organisé du 21-23 octobre 1993.Coordinateur, Group de Recherches sur du Maroc et Andalus.publications de la Faculté des Lettres et des Sciences humaines de Tétouan, et École Supérieur Roi Fahd de Traduction Tanger. Imprimer Al hidaya- Tétouan, p.34

⁵ - الاطلاع على تلك النتائج العكسية والمباشرة وغير المباشرة منها مثل هذه الكوارث على واقع المجال المغربي في أبعاد مختلفة، يرجى الرجوع إلى: مجلة زمان، ع 12، أكتوبر 2014، حيث تم تخصيصه ملف تاريخي بعنوان، أوبئة أهلكت المغاربة، صص. 40-57.

الخاتمة

في الختام، يبدو أن الفقر بالمجال التطواني خلال القرن 19م لم يكن مجرد حالة فردية مرتبطة بالحاجة والعوز، بل شكل ظاهرة اجتماعية واسعة ارتبطت بجملة من الأسباب المتفاعلة، وفي مقدمتها الكوارث الطبيعية. وقد أسهمت هذا الكوارث في تفاقم أوضاع الفئات الهشة، من خلال ارتفاع الوفيات، وتراجع الإنتاج الفلاحي، وتنامي مظاهر الحاجة والتسول والهجرة. كما أن الوثائق المحلية رغم محدوديتها، تزخر بمعطيات تسمح بإعادة بناء جانب من تاريخ الفقراء والمهمشين الذين ظلوا خارج دائرة اهتمام الكتابات التاريخية.

توصيات:

- تشجيع الدراسات السوسيو تاريخية المحلية التي تهتم بتناول تاريخ الفئات المهمشة والفقيرة عبر استثمار المتن الوثائقي.
- توسيع نطاق البحث المقارن بين المجال التطواني وباقي المجالات الحضرية والريفية خلال نفس المرحلة، بهدف إبراز خصوصيات الفقر وآليات مواجهته واستخلاص أنماطه المشتركة والمختلفة.

- الرهوني أحمد، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين. تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي تطوان. (عدة مجلدات).
- قرنفل حسن، الفقر من الإحسان إلى التنمية البشرية. مطبعة الأمنية، نشر دار الأمان، الرباط، 2017
- كردية إبراهيم، أمثلة من مجاعات وأوبئة وكوارث ضربت أسفي وباديتها منذ الاحتلال البرتغالي وحتى عام البون، مطبعة نور، سفي، طبعة 2008

✓ رسائل جامعية

- خليلي بختة، الفقر بالمغرب الإسلامي ما بين القرنين 7 و 9 الهجريين (ق 15/13 م) واقعه و آثاره، دكتوراه نوقشت بكلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر، الجزائر، السنة الجامعية 2016/2015،
- بنطالب علي، آثار الضغط الجبائي في تطور العلاقات بين المخزن والقبائل 1894-1912. بحث لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 2004/2003.
- نجاري زينب، المحددات و الأبعاد السوسيو اقتصادية للفقر بالوسط القروي إقليم تاونات نموذجاً. بحث لنيل الدكتوراه في السوسولوجيا، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 2010/2009.

✓ ندوات

- ندوة: تطوان قبل الحماية (1860-1912). مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي بتعاون مع المجموعة الحضرية لتطوان. نظمت أيام 12-13-14 نوفمبر 1992. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، مطبعة الهداية - تطوان
- ندوة: وفقات في تاريخ المغرب. دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب. تنسيق عبد المجيد القدوري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط رقم 27، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء، الطبعة الأولى 2001.
- ندوة، الأيام العاشرة للجمعية المغربية للبحث التاريخي، المجاعات و الأوبئة في تاريخ المغرب، نظمت بكلية الآداب و العلوم الإنسانية بالجديدة يومي 25،26 أكتوبر 2002، وقبل هذا أنجز محمد الأمين البزاز دراسة عنونها ب: تاريخ الأوبئة و المجاعات بالمغرب في القرنين 18 و 19، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: رسائل و أطروحات؛ رقم 18. مطبعة النجاح الجديدة البيضاء، 1992
- ندوة، المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي، تنسيق، د. الهادي التيمومي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة- قرطاج، 1999.

✓ مجالات

- ✓ أبو إدريس إدريس، «مساهمة في التاريخ الديمغرافي للمغرب: المجاعات وأثرها على النمو الديمغرافي أواخر القرن 16- النصف الأول من القرن 18»، مجلة كنانيش، وجدة، ع 1، 1999، ص.139.
- ✓ حبيذة محمد، «عرض بيبليوغرافي، لكتاب نيكولا ميشيل، إقتصاد المعاشات في مغرب ما قبل الحماية»، مجلة هيسبريس تمودا، العدد XL مجلد فريد 2005، منشورات كلية الآداب بالرباط، ص.119.

✓ مجلة زمان، ع 12، أكتوبر 2014، الملف التاريخي بعنوان، أوبئة أهلكت المغاربة، صص. 40-57.

✓ الأجنبية

- Docteur, Vincent et Collardot, **Le choléra d' après les neuf épidémies qui ont a régné à Alger, depuis 1835 Jusqu' en 1865.** Paris, Vitcor Rozier, 1867, p.355.
- Forrest, Alan, **la revolution français et les pauvres**, Traduit de l'Anglais par marie-Alix revellat, paris, Perrin, 1986.
- Freu ; ch, « **Al'écoute des pauvres des âges anciens** »,in revue quart Monde, n° 214.
- Geremek, B (1978), **La patence ou lapitié ,l'Europe et les pauvres du Moyen Age à nos jours** , Traduit du polonais par jenne Arnold Nuricet, Paris Gallimard.
- Lourido Díaz, Ramón,« *La ciudad y región de Tetuán durante el Sultánato de Muhammad III a través de la documentación española.* »Tétouan au 18^{ème} siècle (1727-1822). Organisé du 21-23 octobre 1993.Coordinateur, Group de Recherches sur du Maroc et Andalus.publications de la Faculté des Lettres et des Sciences humaines de Tétouan, et École Supérieur Roi Fahd de Traduction Tanger. Imprimer Al hidaya- Tétouan, p.34
- Mollat, M. (1978) **les pauvres au Moyen Age** . Etude social. paris Hachette.
- Pietri, ch (1983), « **les pauvres et la pauvreté dans l'Italie de l'empire chrétien IV siècle** » in Miscellan eahistoriae ecclesiasticae Actes du IV colloque de varsovie 1978, Bruxelles
- Serrallonga urquidi, Joan, , «**La Guerra de África y Cólera (1859-1860)** »Hispania.N° 58,1998.
- Simmel, Georg, **les pauvres**, Traduit de l'allemand par Bertand chorrane, paris ,P,U,F,1998.